محاضرة حول المذهب المثالي:

1- في مفهوم المثالية:

تقال "المثالية" غالبا في مقابل "الواقعية"réalisme والكلمة في اللغات الأوروبية مشتقة من كلمة (Idée , idea) بتوسط الصفة مثالي idéal وهذه الصفة تستخدم بمعنيين مختلفين:

الأول يقال مثالي idéal على ما ينتسب إلى الفكرة، وبالتالي يوجد في العقل بما هو فكرة . وبهذا المعنى يقال عن الأشكال الهندسية إن وجودها مثالي، أي يوجد في الذهن، ولا يوجد كما هو، الواقع.

الثاني يقال "مثالي" بمعنى "كامل" "تام" فالمثال ما يحقق كمال النوع الذي يندرج فيه. ويعبر عنه، في حالة الاسمية، بـ"المثل الأعلى".

ومنعاً لهذا الخلط اقترح البعض استعمالIdée للمعنى الأول، وقصر idéal على المعنى الثاني.

والالمثل الأعلى يكون في الأمور النظرية، كما يكون في الأمور العملية.

كذلك تقال المثالية على المثالية النظرية أو الفلسفية، وهي حينئذ تقابل الواقعية النظرية. وتقوم في رد الواقع إلى أفكار أو تقرر أن معرفتنا تنحصر في الأفكار، دون الأشياء.

كما تقال المثالية على المثالية العملية أو الأخلاقية، ويقابلها الواقعية العملية. وتقوم هذه المثالية العملية أو الأخلاقية في الفعل وفقاً، أو اهتداء بمثل أعلى، أي استرشاد بآمال تتجاوز الواقع الموجود في التجربة"[1].

2 - مميزات المثالية:

إذا أمعنّا النظر في حقيقة المثالية فإننا نجد أنه ليست هناك مثالية واحدة، بل اتجاهات مثالية متعددة، وهي تشترك كلها في مصب رؤية مركزية موحدة، تقوم على اعتبار أن الذات كمعطى أول، سواء على صعيد الوجود أو المعرفة أو القيم، في حين يعتبر الواقع أو معطيات العالم الخارجي في الدرجة الثانية من حيث الاهتمام الفكري، ومن هنا كانت النزعة المثالية نزعة ذاتية، تتراوح بين اعتبار الذات هي الحقيقة الأولى، مع الاعتراف بشكل من الأشكال بموضوعية المدركات وبين اعتبار الذات مركزا لكل شيء.

يرجع هذا المذهب المثالي جميع الأشياء مهما كانت مادية أومعنوية إلى الذات، من حيث أن هذه الذات تشكل العنصر الفاعل في مختلف العمليات العقلية، ووصل الأمر بهذا المذهب إلى اعتبار الذات المنطلق الأساسي والفلسفي الذي يجب التقيد به في تناول جميع الموضوعات التي تشكل محور اهتمامها. "وبذلك اعتبر تأثير المثالية كان على اساس نظرية المعرفة، أي حول الشروط التي يجب ، تتوفر عليها الموضوعات لكي يدركها العقل الإنساني"[1] .

1ــ منها التمييز بين المثالية الموضوعية ، والمثالية الذاتية. والأولى هي التي نجدها عند أفلاطون ومفادها أن لجزئيات الحسية ليس لها وجود حقيقي، وإنما صورها النوعية هي ذات الوجود الحقيقي. فصورة الانسان هي الحقيقة، بينما الجزئي المحسوس من بني الانسان: كزيد وعمر، ليس له وجود حقيقي إلى بمشاركته في صورة النوع الانساني ـ وأما المثالية الذاتية فهي التي نجدها عند "كانط" ثم عند المثاليين الألمان الكبار: فختة، هيجل، شلنج. ومفادها ان العقل لا يدرك الأشياء في ذاتها، بل الامتثالات التي لدينا عن هذه الأشياء.

2ــ ومنها التمييز بين المثالية في نظرية المعرفة ، والمثالية في نظرية الوجود، والمثالية في نظرية الكون، فالأولى هي الموضوعية والمثالية الذاتية، أما المثالية في نظرية الوجود، فتقول إنه لا توجد موجودات بالمعنى المعتاد لهذا اللفظ، أي جواهر ثابتة ، مادة أو عقل بل يرجع كل شيء إلى الفكر، والامتثالات والظواهر. أما المثالية في نظرية الكون، إنها امتثالات حقيقية موجودة خارج العقل لا يناظرها شيء؛ إذ لا توجد أشياء، بل أفكار عن هذه الأشياء.

1ـ المثالية الأفلاطونية:

قبل معرفة مثالية "أفلاطون" لابد الاشارة إلى هذا الفكر الذي تغذى في بداية تَشكُله الأولى من مشارب الفلسفة الطبيعية، لذلك كانت ملامح هذا التأثر في عهودها المبكرة بمذهب هرقليدس (*) في مفهوم الصيرورة، كما تأثر كذلك بالرياضيات "الفيتاغورية" ، "لأن الرياضيات تمثل عند أفلاطون المدخل الضروري لكل من أراد الوصول إلى عالم المثل"[1] ،كما استلهم فكرة "سقراط" حول مفهوم الحقيقة، لهذا عمل على تطوير هذه الأرضية الفكرية في تصور المعرفة .

يرتبط مصطلح المثالية عادة بـ"أفلاطون" ولكن مثاليته في الحقيقة تتمتع بمواصفات خاصة، لا ترتبط كثيراً بالاتجاهات المثالية الحديثة. يميز "أفلاطون" بين عالمين، أو مستويين للتعبير عن الحقيقة:

عالم مادي محسوس، ويمثل الحقيقة مستوى الحقيقة الظاهرة، أو الوجود العياني الذي يتألف من الأشياء المادية المحيطة بنا، مثل الأشجار، والجبال ....، أي كل ما يتعلق بالعالم الخارجي، وعالم علوي معقول، ويمثل مستوى الحقيقة الحقة، أو الوجود الحقيقي للأشياء في كمالها وثباتها وسرمديتها. في حين نجد أن الأشياء الموجودة في العالم المادي المحسوس ليست إلا أشباح أو ظلال للأشياء الموجدودة في العالم المعقول.

لقد كانت مثالية "أفلاطون" لها ارتباط كبير بفكرة الاهتمام بالأسطورة، التي تعتبر سمة الثقافة اليونانية في بداياتها الأولى، لذا، " لم تكن الأسطورة عند أفلاطون زخرفة للأسلوب أو اقتصادا في الأفكار وإنما كان دورها أبعد من ذلك، إذ كانت تفعل في الموضوع لا بتوضيحه أو تبسيطه وإنما بإعادة بنائه، فتطور الأفكار خاضع لتطور الصور وصيرورتها لأن الأسطورة في الفلسفة اتخذت طابعا عقلانيا وذلك ما توضحه في صورة رائعة أسطورة "الكهف"[1].

وبهذا كانت مثالية " أفلاطون" من حيث طبيعة الأسس التي قامت عليها، مثالية مفارقة، تفرق بين عالمين: أحدهما عقلي والأخر شبح له، وهي مثالية موضوعية، لأنها لا تربط وجود العالم الخارجي بالذات، ذات الفرد المفكر، بل تربط وجوده بعالم الأفكار، عالم المثل الذي يتمتع بوجود موضوعي أكمل من وجود لعالم الحسي، وذلك على العكس من الاتجاهات المثالية الحديثة التي تربط وجود العالم بالذات.

2ـ لا مادية باركلي:

لقد انتشرت في القرن الثامن عشر الاتجاهات المادية وتيارات الالحاد، فقام الانجليزي "جورج باركلي" (1685- 1753) بمحاولة جريئة يهدف من ورائها تفنيد تلك الاتجاهات والتيارات، معتقدا أنه إذا ثبت استحالة وجود المادة مستقلة عن الفكر، فإنه سيكون قد قوض المذهب المادي من الأساس، وبذلك سميت نزعته المثالية اللامادية. وفي الحقيقة أن هذه المادية تقوم على فكرة أن وجود الأشياء يتحدد على ضوء وجود ذهن يدركها، ومن ثمة يمكننا أن نحكم بأن الشيء الواقعي الوحيد في الأشياء كلها، فما ندركه موجود وما لا ندركه فهو غير موجود، وبعبارة "باركلي" المشهورة إن وجود الموجود هو أن يدرك".

3 ـ المثالية النقدية:

هذه تعود أسسها إلى الفيلسوف الألماني "ايمانويل كانط"، حيث تهتم هذه الفلسفة اهتماماً كبيراً بنقد العقل لبيان شروط المعرفة البشرية وحدودها، منتقدا بذلك المذهب العقلاني والمذهب التجريبي في مواقفها حيال نظرية المعرفة، ومحاولة تقديم حلول ممكنة حول ثنائية الحس والعقل، واضعاً إمكانية المعرفة موضع تساؤل، وإثارة مشكلة البحث عن مصادرها وتعيين شروطها وحدودها .

إن المثالية هي النظرية التي تقرر أن وجود الأشياء في المكان خارج العقل هو إما موجود مشكوك فيه، أو زائف أو مستحيل، الأول هو قول الاحتمالية عند "ديكارت" الذي صرح بأن ما لا يحتمل الشك هو التقرير التجريبي، أي "أنا موجود" والثاني هو قول المثالية التوكيدية عند باركلي الذي عدّ المكان وكل الأشياء ترتبط به بوصفه شرطا لا غنى عنه.

وميز "كانط" بين هذه المثالية وبين المثالية المتعالية أو الصورية، وهي المثالية التي أخذ هو بها، وهي التي تقول إن المكان والزمان والمقولات إطارات قبلية موجودة في العقل وبفضلها يدرك التجربة.

4 ـ المثالية المطلقة:

نعت "هيجل مذهبه بأنه مثالية ذاية أو مطلقة، وقد أوضحها قائلاً: "المثالية هي القول بأن المتناهي مثالي. والمثالية في الفلسفة معناها . عدم الاقرار بأن المتناهي موجود حقيقي . وكل فلسفة هي مثالية في جوهرها، أو على الأقل تقوم على مبدأ المثالية. والأمر إنما هو: إلى أي مدى يتحقق هذا المبدأ فعلاً. إن الفلسفة مثالية، كما أن الدين مثالي"[1] .

" إن فلسفة هيجل كانت بحثا في الوجود الحقيقي ما دام ريد أن تصل إلى عمق أعماق الواقع وتضع يدها على الروح أو اللوغوس الذي يحركه. وليس هو الفكر الموضوعي أو الواقعي الذي يصبح هو والوجود شيئاً واحدا، وتصبح فيه مقولات علم الفكر وهو المنطق هي مقولات الوجود أو الواقع "[2] .

لذلك وجب التمييز بين ماهو نتاج الفكر والتخيل (المثالي) وبين ما هو نتاج الادراك الحسي المباشر الواقعي، وعلامة الثاني هو أنه مرتبط بزمان ومكان، بينما الأول المثالي غير مرتبط بزمان ومكان . لكن اعتلرض على ذلك بالقول بأن ثم أموراً واقعية لا ترتبط بالزمان، مثل الأشكال الهندسية، ولهذا عدّل البعض علامة التمييز بين المثالي والواقعي بأن قال إن المثالي ليس متصوراً قبلياً على زمان معين محدد (لأنه صادق بالنسبة إلى أي زمان)؛ بينما الواقعي مرتبط بزمان ومكان.

المصادر والمراجع:

André Lalande : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 1vol, PUF, Paris, 1992.
Paul Foulquié: Dictionnaire de la langue Philosophique, PUF, Paris, 4é Editionne, 1982.
– عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني.
- Bertrand Russell : Problèmes de Philosophie, Petite bibliothèque payot, Paris1972, p.44.

- Charles Werner: La Philosophie Grecque, Edition petite bibliothèque Payot, Paris 1962.
- J.P. Vernant : Mythe et pensée chez les Grecs, T2, FM, Paris, 1971.

[2] – يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية.